المحاضرة الثانية : نشأة الأدب الصوفي

قبل ظهور التصوف كحركة دينية وفكرية ، وكسلوك عملي آثر فريق كبير من الناس خاصتهم وعامتهم ارتياده وركوب موجته .

تجلت بدايات هذا التيار، بظهور موجة من المتدينين المتزهدين ، الذين آثروا شظف العيش على نعيم الدنيا الفاني ، واستحبوا حياة العزلة والانطواء على حياة البذخ ومخالطة الملوك والسلاطين ، والطمع فيما في أيدي الناس وتملقهم لنيل رضاهم ، على العكس من ذلك هناك من كان صاحب مال وثراء **كإبراهيم بن أدهم** , الذي ترك حياة اللهو والغنى والدَعة وانطلق مسافرا إلى بلاد العراق والشام يطلب العلم ويجتهد جهده في العبادة ، والعمل من كسب يده ، فكان يزرع ويسقي الأرض ويحصد ، ويجاهد في الله الكفّار حقّ الجهاد .

واستقوا من معين النبوة الفيّاض معاني الزهد والصبر والسماحة والقناعة ، كما كان هديه عليه الصلاة والسلام خير سبيل للتائبين والصادقين والصابرين . وفي هذا المقام نلفي أحاديث كثيرة تزهّد في الدنيا وترغّب في الدار الآخرة لأنها دار الخلود والبقاء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(احذروا الدنيا فإنها خضرةٌ حلوةٌ) [1]

وكان يوصي أصحابه بالاحتراز من الدنيا ، ويوصيهم بأن يكونوا كالغرباء أو عابري سبيل، من ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لابن عمر – رضي الله عنهما – : (يا عبد الله كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل ، وعدّ نفسكَ من أهل القبورِ) [2]

---

[1])– الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ، كتاب الزهد ، تحق: محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط4 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1423 هـ ،2002 م ، ص 27

[2]) – نفس المصدر ، ص 22

وكان صلى الله عليه وسلم يمثل حاله مع الدنيا كمثل رجل استظل في يوم قائظ تحت ظل شجرة ، ثم تركها وراح إلى حال سبيله ، يقول : (مالي وللدنيا : إنّما مثلي ومَثَل الدنيا كمثل راكبٍ قال " من القيلولة " في ظلّ شجرةٍ في يومٍ صائفٍ ثمّ راح وتركها) [1]

فالدنيا دار نكد ونصب ، تغوي العبد بمفاتنها ، وتهوي به في قعر شهواتها ؛ إن لم يتداركه لطف الله ، ولم يتسلح بقوة إيمانه بخالقه ، (عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنّه كان يحدث : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرَّ عليه بجنازةٍ ، فقال : " مُستريحٌ ومُستَراحٌ منه ". قالوا : يا رسول الله، ما المُستريحُ والمُستراحُ منه ؟ قال : " العبد المؤمن يستريح من نَصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد ، والشّجر والدّواب ") [2]

والقرآن الكريم يوجهنا إلى سلوك السبيل الأمثل في الحياة الدنيا ، بعبادة الله الواحد الأحد، وطاعته واتباع هدي نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأداء العبادات المكتوبة والنوافل ؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج ..وتجنّب خطوات الشيطان ، لأنّ الشيطان للإنسان عدو مبين.

والزهد لا يعني بأي حال من الأحوال ، اعتزال الناس والعيش في الكهوف والفلوات ، ولبس الصوف ، وترك العمل وطلب الاجتهاد ، والسعي نحو الرزق الطيب ، ومخالطة الناس بخلق حسن والتأثير فيهم نحو الأفضل ، ولذلك كثيرا ما كانوا يتمثلون قوله تعالى:

---

[1]) – الإمام أحمد بن حنبل ، كتاب الزهد ، مصدر سابق ، ص 21

[2]) – الإمام البخاري ، صحيح البخاري ، ضبط النص :محمود محمود حسن نصّار ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1425 هـ ، 2004 ، ص 1187 (كتاب الرقاق)

" وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدّنيا وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليكَ ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ إنَّ اللهَ لا يحبُّ المفسدينَ (77)" [1]

وفي التفسير ورد : (" **ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** " أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى اللهِ ، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والانفاق من الطاعات .

" **ولا تنس نصيبك من الدنيا** " قال الحسن : أي لا تضيّع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إيّاه . " **وأحسن كما أحسن الله إليك** " أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك . " **ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ** " أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس ، والإفساد في الأرض بالمعاصي . " **إنّ الله لا يحبّ المفسدين** " أي لا يحب من كان مجرما باغيا مفسدا في الأرض .) [2]

من مشاهير الزهاد :

عاش في بيئات المسلمين رجال صلحاء عرفوا بالزهد والنسك ؛ ومن أشهرهم : الحسن البصري ، فقد ربيّ في حجر (أمّ سلَمة أم المؤمنين وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم) كما تتلمذ على كبار الصحابة ، فأخذ عن عثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب ، وأبي موسى الأشعري ، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس.. وغيرهم من الصحابة [3]

ومواعظه : " كلّها تنعى على ابن آدم نسيانه لربه وآخرته ، وما أعدّ له الله من ثواب وعقاب . ويحس الإنسان في مواعظه دائما بالرجفة والفزع من العذاب ، وكأنّه يرى بعينه

---

[1]) – سورة القصص ، الآية 77

[2]) – الشيخ محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير – تفسير للقرآن الكريم – ج2 ، ط1 ، دار الصابوني ، القاهرة ، 1417هـ ، 1997 م ،ص 410

[3]) – ينظر :عبد الرحمان رأفت الباشا ، صور من حياة التابعين ، ط15 ، دار الأدب الإسلامي ، القاهرة ، 1418 هـ ، 1997 م ، ص98

الجحيم ، وهو يخلط ذلك بالدعوة إلى الزهد في حطام الدنيا ، والتقرب إلى الله بالعبادة والنسك والمحبة " [1]

ومن الشعراء الذين أجادوا في الزهديات ، فذكروا الموت والمعاد ، ودعوا إلى التقوى وصالح الأعمال ، والعمل للدار الآخرة حتى يكون الجزاء من جنس العمل ، وعرف بمناجاته للقبور، فيدعو إلى أخذ العبرة والتدبر في مآل البشر ، فبعد أن كان الموتى أحياء ينعمون بالحياة وينهلون من مباهجها وترفها فإذا هم اليوم جماجم عريت وعظام نخرة ، يقول في هذا المعنى :

إني سألتُ القبرَ ما فعلَتْ * بعدي وجوهٌ فيك منعفره

فأجابني صيّرتُ ريحَهم * تؤذيكَ بعد روائحٍ عطره

وأكلتُ أجساداً منعّمةً * كان النّعيمُ يهزّها نضره

لم أبق غيرَ جماجمٍ عَرِيتْ * بيضٌ تلوحُ وأعظمٍ نخره [2]

ويروى أنّ هارون الرشيد طلب منه أن يعظه ، فقال له :

لا تأمنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نفَسِ * وإن تمنّعتَ بالحُجابِ والحرسِ

فما تزالُ سهامُ الموتِ نافذةً * في جنبِ مدَّرعٍ منها ومتّرسِ

---

[1]) – شوقي ضيف ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ، مرجع سابق ، ص 61

[2]) – مصطفى الشكعة ، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، ص 219

ترجو النجاةَ ولم تسلكْ مسالكَها * إنَّ السَّفينةَ لا تجري على اليَبَسِ [1]

فبكى الرشيد حتى اخضلّت لحيته .

ومن الزهاد عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري ومالك بن دينار ؛ هذا الأخير كثيرا ما كانت تخنقه العبرات إذا ما ذكر الموت أو وقف على القبور ، يقول :

أتيتُ القبورَ فناديتُهـ * نَّ أينَ المُعظَّمَ والمحتقَرْ

وأين المُدِلَّ بسلطانـهِ * وأينَ المُزكّى إذا ما افتَخَرْ

تفانوا جميعًا فما مُخبِرٌ * وماتُوا جميعًا وماتَ الخبرْ

فيا سائِلِي عن أناسٍ مضوا * أمالَكَ فيما ترى مُعتبَرْ [2]

فطيلة القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الثالث الهجري ، ظلت قصيدة الزهد واضحة الفكرة ، تستقي مادتها من القرآن الكريم والسنّة النبوية العطرة ، وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، لغتها مشرقة لا لبس فيها ولا غموض ، ألفاظها سهلة في الغالب الأعم ، بعيدة عن التكلّف والتعقيد اللفظي.

وفي القرن الثالث الهجري ، ونظرا للتطور الحضاري والتنوّع الثقافي خاصة في البيئة العراقية ، وكثرة المدارس الفكرية والفلسفية كالإعتزال والجبرية والجهمية.. بدأت تطرأ على القصيدة الدينية تغيرات مما أدى إلى نشوء ما يسمى بالشعر الصوفي

ويعد الحلاج من كبار مؤسسي هذا التيار في ق3هـ ، ومن أشهر أقواله :

---

[1]) – مصطفى الشكعة ن مرجع سابق ، ص 219

[2]) – شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 400

اقتلوني يا ثقاتي * إنّ في قتلي حياتي

ومماتي في حياتي * وحياتي في مماتي

أنا عندي: محو ذاتي * من أجل المكرمات [1]

[1]) – علي الخطيب ، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1404 هـ ، ص31